مُناقشَات

حول قصيدة « البعد الخامس »

بقلم الطيب الشريف

في الوقت الذي اعاني فيه قلقا فكريا يبلغ حد الخوف بازاء مشكلة « التعبير » بوصفه وسيلة رئيسية من وسائلنا : لفهم الواقع وللتفاهم مع الاخرين ... ياتي « تعليق » الدكتور علي سعد على قصيدتي: « البعد الخامس » مؤكدا لاهمية تلك المشكلة حتى لكأنه يجعلها تستضيء بنهار جديد ، بما يبتعثه في الذهن من اثارة مستجدة لقضية وجودية ما انفكت كامنة في كل التصورات الثقافية على الصعيد العالمي .. ويكفي في هذه العجالة ان اشير الى المقال القيم : « انغام المساء » ــ (ترجمة الاستاذ محمد عبد الله الشقفي) الذي تناول فيه كاتبه « الدوس هكسلي » مشكلة « المعاناة » و « الانطباع » ، والذي توصل فيه بعد الامثلة والمحاكمات الاستنتاجية الى : « ان كلماتنا نحن لا تستطيع ان تعبر تعبيرا ملائما عن معاني كلمات الاخرين » ..

والواقع ان ارتباط تعليق الدكتور سعد بهذه المشكلة هو الذي يكسبه لدي المدى من الاهمية الذي اضفيته عليه لانه في دلالته النفسية مظهر من مظاهر المشكلة ..

واراني مضطرا قبل مناقشة التعليق الى الالتماس من صديقي الدكتور سهيل ادريس في ان يسمح لي بأن استعين بتلك المراسلة الشخصية التي وجهتها له بتاريخ ١١ ــ ٦ ــ ١٩٥٧ لانها فيما احسب وافية بالغرض في بلورة الاشكال واثارته معا :

ــ « انا خائف !..

ولقد كانت « الكتابة » بالنسبة الي ولا تزال « موضوع مخافة » لانني لا اثق كثيرا في « عالم اللفظ » .. انه يبدو لي دائما وسيلة قاصرة لا تفي بالتعبير عن الحقيقة المستقلة استقلالا موضوعيا في الخارج .. ولا عن ذلك « الكيان الحقائقي » الذي نعيشه في داخلنا كما لو كان جوهرنا !.. فهو لا يحلله «كما هو» في عالم الواقع بكل جزئياته ودقائقه .. ولا يمنحه الى « الاخر » ــ الذي يتلقاه عنا ــ بكينونته المنتفضة بالحياة ، وبزخمة الهادر ، وفعاليته « الطاقية » : (énergique) التي عاش بها في اعماقنا فاعلا متفاعلا كما لو كان « توأما » لذواتنا فيه كل ما فيها من حيوية وايقاع ومذاق ، من لون ورائحة وظل .. انه لا يكاد يصنع شيئا غير الاكتفاء « بالاشارة » الى الحقيقة الداخلية او الخارجية على حد سواء .. فاذا اتيح لنا ان نتصور ان لمسة الاشارة اللفظية للذهن البشري هي مجرد مفتاح اولي في يد هذا الذهن ليكمل تصوره المعاش (بطريقته الخاصة) للحقيقة الواقعية تصورا مهما اكتمل وتكامل فهو نسبي .. واذا اتيح لنا ان نتصور ان الحقيقة بدورها نسبية هي الاخرى اذا تمثلت خلال مفاهيم متباينة .. وانها نسبية بالضرورة في عالم : « المكان ــ الزمان » كذلك ، لانها في حركيتها الحياتية تتفاعل مع تناقضاتها « الصلبية » : (intrinsèque) خلال الديمومة ، وتتغير دائما بحكم قانون الصيرورة تغيرا لا يمنحها الثبات والاستقرار على حال جامدة مما لا يتيح للفكر ان يدركها في وضع معين ، ولا ان يعرفها « في ذاتها » معرفة يقينية ونهائية .. امكننا على نحو من الانحاء ان نتساءل عما اذا كان قد حكم على الانسان ان لا يعرف « الشيء في ذاته » الى الابد ، وان يظل مع ذلك يلاحقه بلا جدوى الى الابد ؟!!

لقد قال سبينوزا : « ان الذي يملك الحقيقة يعرف انه يملكها ، ويعرف في الوقت نفسه انه يميز بينها وبين الخطأ » .

واذا سلمنا بأن هذا الكلام « على اطلاقه » صحيح ما دامت «الحقيقة» « ممتلكة » ، « في عالم الداخل » ، اي قبل ان تصدر عنا الى الخارج في شكل «تعبير» (وتعبير لفظي بالخصوص) فاننا لا يمكننا ان نسلم بأن القضية تبقى على حالها من الصحة اذا خرجت « الحقيقة »من المرحلة التي « تعاش فيها » : « في داخل انسان » الى المرحلة التي « تتلقى » فيها »ــ في شكل تعبير عن داخل انسان .. لانه سيظل يجبهنا ابدا تأكيد سارتر على : (ان ظاهرة التعبير نفسها سرقة للتفكير.. ما دام التفكير في حاجة الى التنازل عن شخصيته لكي يصبح موضوعا « يمكن التعبير عنــه !..)

لهذا كانت الكتابة (التي هي وسيلتي التعبيرية الوحيدة حتى الان) موضوع مخافة بالنسبة الي كما اسلفت .. لانها تولد في كلما لجأت اليها الخوف من ان لا افهم .. انني اكتب اليك وفي قرارتها الخشية من ان لا تفهم عني .. ومع ذلك فأنا اكتب اليك !! كما لو حكم على الانسان دائما ان يظل « معبرا » بالرغم من قصور التعبير .. وان يوهم نفسه خلال ممارسة التعبير (على حق او على غير حق !.) بان اللفظ عندما يمر بذواتنا لا بد وان يعلق به ظل ــ ولو يسير ــ من « شخصية » تفكيرنا !.

انا خائف لانني اكتب اليك وخائف لانك « تتلقى » مني وخائف لاني اخشى ان لا تفهم عني .. يا للمرارة يا عزيزي !!.. اسمح لي ان اثقل عليك .. وخائف انلا « تعذرني » في النهاية ! »

✶

وانا لا اشك في ان الاستاذ علي سعد قد « قرأ » قصيدتي اي «تلقاها» مني عن طريق اللفظ .. ولكن الذي اشك فيه ــ وليتسامح معي«الناقد» الكريم في ذلك ــ ان يكون قد حاول « معاناتها » ، و « تمثلها » .. بل حتى مجرد « فهمها » بدلالاتها الصريحة والضمنية .. فهو يقول : «يؤسفني الا اجد في قصيدة « البعد الخامس » للطيب الشريف غير عملية تنجيم (؟ !) بمحاولاتها لكشف رموز لا تزيدنا الا غوصا في المبهم ! » ...

وبالرغم من ان القصيدة يمكن ان تندرج في عداد الشعر الرمزي الا انها ليست من الابهام والغموض بحيث يصح ان نجازف بالحكم عليها هكذا وبدون اي استدلال او تبرير بأنها ليست « غير عملية تنجيم » ..

فالحقيقة ان القصيدة و « العنوان » ــ الذي هو بمثابة « الاطلالة البؤرية » على مضمون التجربة الشعورية ــ مترابطان في لحمة موضوعية لا تستدعي الذكاء المعجز لكي تفهم فضلا عن ان تتهم بالمحاولة « لكشف رموز لا تزيدنا الا غوصا في المبهم » .

اما العنوان : « البعد الخامس » فهو يستدعي التأمل لغرابته الظاهرية فنحن نعلم جميعا ان الابعاد اربعة ، الابعاد الثلاثة المكانية ، والبعد « الانشتايني » او البعد الرابع الذي هو الزمان .. ومن ثم ينشأ لدينا سؤال تتوقف الاجابة عليه على «معاناة » التجربة الشعرية ، أي على تمثل القصيدة . وحينئذ : « فما هو المقصود من هذا البعد الجديد الذي يدعو اليه صاحب القصيدة ؟.. » تلك هي القضية !

فالشاعر يحكي لنا عن رسالة بعثت بها اليه اخته « في دار غربته » تقول فيها :

ـ « بيت ابي اغرقه الطوفان! ..
وانا اليأس يمزق ذاتي
ليتك تملك ان تهب الدفء لاعماقي
فوجودي لا زال يهدده الطوفان
والظمأ اللهبـان السـاعر
وغمامية هذا التيه بلا اخر
ليتك تملـك ان تهب لي الدف ء
وتريق غناءك في ذاتي
فالالحان .. لا زالت تخصب توق الانسـان
وتمرده الملآن .. اختك .. مع الف حنـان . »

وواضح من هذه الرسالة انها تعرض مأساة داخلية تعيشها مواطنـة يتمزقها الياس داخل وضع درامي معين ، وملابسات قد تبدو غريبة او غير مفهومة لدى انسان لم يعش نفس ذلك الوضع ولم يدرك عنف تلـك الملابسات بحكم انعزاله عنها في قليل او كثير لدواع لست مسـؤولا عنها على اية حال ...

ولكن بقية القصيدة تمنحنا تفسيرا لتلك الكلمات الرمزية « بيت أبـي اغرقه الطوفان » ، وتحاول « بقدر المستطاع » ان تشير الى « بعـد » (من نوع خاص) لا يزال في امكان ارتياده والايمان به عن وعي ان ينمحنـا الصمود ازاء اي طوفان عتي جراف لاي وضع يهددنا في اعماقنا ليحيق بها البرود والتفسخ .. انه « بعد » : الحرية ، الذي يضفي على القضية الوطنية او القومية صبغة القضية الانسانية لان معركة الحرية كمعركة السلام لا تتجزأ فهي قضية الانسان حيث كان :

ـ بالامس فهمت رموزه :
« فأبي » ... تعنين : الشعب
و « البيت » .. تراب محتل :
ارض «الخضراء» ...
و « الطوفان » .. : الزيف الغامر
بالامس قرأت رموزك
يا صبحي الزاخر
وشكرت لك التحنان
لكني مثلك : في « مهجرتي »
لا املك غير نشيج اسيان
وريادة بعد في الامكان
ما انفكت يمنى الانسان
تمسك مشعلها الظافر
وتشير له خلل الاعتام :
الحرية !!
الحرية من اجل الكل
ورغم الاظلام !..

واذن فالقضية اخطر مما يتصور الناقد الكريم : فاذا كان « العلم » قد اخذ على عاتقه دراسة الابعاد الاربعة ، وتطويعها من اجل خدمـة الانسان وفي سبيل شرف الغد .. فان هذه الابعاد تظـل عديمة الجدوى اذا لم يتكامل معها ذلك البعد الخامس الذي هو الحرية ، البعد الذي هو مهمة الكل ورسالة الفنان بالخصوص لكي يوطد معالمه ، ويدعو الى الايمان به ما دامت الالحان تخصب توق الانسان ، وتستحث بجدواها تمـرده الملآن لكي يعمل على تبديد الاعتام !..

ان « النقد » وحتى مجرد « الانطباع الذاتي » الذي يمنحنا احكـام المادة الفرد جاهزة غير حاملة لمبرراتها الجدلية معها ، سوف يظل كلاهمـا حاملا بالرغم من تصوراته المتفاوتة لقيمته البدئية كمعطى بشري يكتسب قيمته واهميته وحتى فعاليته الخاصة في معظم الاحيان من مجرد صدوره عن داخل انسان مفكر او يحاول ان يفكر ، بوصفه رد فعل لمؤثر فكري مهما تكن قيمته الحقيقية فهو بدوره لا يعدو في قيمته البدئيـة حـدود المعطى البشري على اية حال ...

على ان الفارق سيظل جوهريا بالرغم مـن ذلك بـين « المعـاناة » و « الانطبـاع » .. المعاناة التي هي في جوهرها مظهر من مظاهـر : « التعايش السلمي من الداخل » مع الاثر المنقود والذي يصبح بالاضافة الى ذلك اثناء العملية النقدية مؤثرا منتجا لردود افعال معينة .. والانطباع الذي هو مظهر من مظاهر الارتجال من حيث استصداره لاحكام متسرعـة لا تحمل محاكمتها الجدلية معها اعني فاقدة للمبررات المستندة الى كل من التحليل والتركيب في سياق العملية النقدية المركب ..

ولقد كان مطالبا من الدكتور سعد ان ينظر الى العملية النقدية على انها مسؤولية وتوجيه ثقافي .. ولقد كان منتظرا منه ان يكون اكثر فهما للابسات المأساة التي تدور على مقربة منه في رقعة معينة من ارض عربية معينة ..

واذا كان يعتذر عن ذلك بأن الايحاء بالاشارة والرمز في التجربـة الشعرية غير كافيين لبلورة القضية في ذهنه هو على الاقل ، فانـه يعطل بهذا العذر وسيلة جوهرية من وسائل الشاعر في الاعراب عـن موقفه من قضايا عصر كعصرنا تتعقد فيه المشاكل والمواقف وتتطلب فيـه خطورة هذه وتلك اللجوء الى الرمز الموحي بوصفه الاداة المسعفة والمنقذة معا لانها قد تصبح لدواع نحن نعلمها ـ وقد لا تغرب عن فطنته ـ الاداة الوحيدة في عالم يكتظه الارهـاب !..

ولا اريد ان اترك الاستاذ لشكه ان كان بقي له شيء من الشك .. فليسمح لي اذن بأن اعرض عليه هذه القصيدة بعنوان :

Philippe Soupault

« الحقيقة الكبرى » لفيليب سوبو
ليس هو المستقبل بأعـلامه
ولا الآتي في كسائه الابيض
ولا ما يجيء غـدا ..
وكأنه عربة الموتى الجميلة المزينة بالريش
ولا حتى الرجـال ذوو الاعين الكبيرة
والبطون الاكبر من ذلك ايضا !..
الذين انظرهم ، الذين اقترحهم

. . . . . .

انه كوب هواء برود .. وقطرة دم
مشـية للفجر
وهذا الالتقاء على ضفة الماء
والضباب الكبير الذي هو الامل
والمجهول : وكأنه نجمـة !..
كل ما اتنبأ به ، وما يجب ان يجهل
لانه سـبق ان توجبت محبتـه !..

LA GRANDE VERITE

Ce n'est pas l'avenir avec ses drapeaux
Ni le futur en robe blanche
Ni ce qui viendra demain
Comme un beau corbillard emplumé
Encore moins les hommes aux grands yeux
Et aux ventres plus grands encore
Que je regarde, que je propose
Une tasse d'air frais une goutte de sang
Une marche à l'aube
Et cette rencontre au bord de l'eau
Le grand brouillard qu'est l'espoir
L'inconnu comme une étoile
Tout ce que je devine et qu'il faut ignorer
Parce qu'il faut déjà l'aimer.

Philippe Soupault.

اما انا فلا زلت على بعض الشك .. « فالناقد الكريم » كما يبدو سوف « ينجم » ـ على حد قوله ـ ولسوف يطيل التنجيم لكي يعثر على « الحقيقة الكبرى » التي يعنيها الشاعر الفرنسي المعاصر برموزه الايحائية تلك ..

ولكن قبل ان اتركه لبلباله الحيران أؤكد له ان هذه القصيدة قيلت في عهد المقاومة للاحتلال النازي لفرنسا ، وان بسطاء الروح من العاديين كانوا قد تمثلوها وعانوها لانهم لم يكونوا لينظروا في ذلك الحين للحقائق البشرية من خلال المنظار الحربي المتزمت ، ولا من كوة ثقافة معينة متحيزة تدعي ان تعابيرها هي الثابتة وهي المشاركة للازل والابد في الرسوخ والبقاء .. ولكن هل تجدي بساطة الحقيقة في اقناع التعنت والتشبث المحجوب ؟!..

مهما يكن الامر فان مشكلة التعبير سوف تظل تولد فينا كلما لجأنا اليها الخوف من ان لا نفهم ، ومع ذلك فسنظل جميعا « معبرين كما لو حكم على الانسان ان يظل دائما معبرا ، بالرغم من قصور التعبير ، وبالرغم من قصورات الفهم في الاخرين ، سواء أنشأت عن الانغلاق الداخلي او التزمت المفاهيمي او عن طبيعة الاشياء ذاتها .. وسنظل نوهم انفسنا خلال ممارستنا لعملية الخلق ـ بحق او بدون حق ـ ان اللفظ عندما يمر بذواتنا ويصدر عنا لا بد وان يعلق به ظل ولو يسير من شخصية تفكيرنا ..

وبالمناسبة فقد تساءل الدكتور علي سعد اثناء ابدائه لرأيه في التعديلات التي ادخلها الشاعر المعجب نزار قباني على احدى قصائد ديوانه :« قالت لي السمراء » ، فقال : « ان لم يكن هذا تزييفا فأين هو التزييف ؟ » .. ولقد تكفلت الاداب التي يبدو حسب كل الاحتمالات ان رئاسة قلم تحريرها ترضخ كل المواد المنشورة لمعايير نقدية صارمة ، قلت تكفلت بالجواب على هذا السؤال بطريقتها الخاصة .. ولا ازال اذكر انها أشارت من طرف « خفي ! » الى ذلك التزييف الذي حصل في احدى المعارك الانتخابية لبعض البلاد العربية المعينة .. ولقد ورد في القصيدة التي نحن بصددها تفسير « الطوفان » بالزيف الغامر ، فأحب ان اذكر هنا انتهازا للفرصة ـ على حد قول الاسلوب الديبلوماسي ـ بأن الزيف اصبح يتخذ مظاهر عدة وجد متنوعة في اوضاعنا وقضايانا ، فقد يكون تزييفا في انتخابات ، وقد يكون حكاية « استقلال » مكذوبة من اساسها.. وقد يكون « حرية » لا تعني غير استبدال عبودية عتيقة بعبودية اجد واشد فتكا ، وقس على ذلك من هذه المظاهر المؤسية حقا التي وان تشكلت بألوان قوس قزح خلل تلوناتها التهريجية الا انها تظل في هويتها زيفا من الزيف ..

ولعل الآداب التي لا ينكر عليها الدكتور نفسه وعيها في طريقة الغربلة والاختيار كانت تدرك ما تعنيه قصيدة « البعد الخامس » حينما تحملت مسؤولية نشرها .. ولا اظنه ينكر لقوله في هذا الشأن منوها بالمجلة حيث يقول : «.. مجلة بمستوى الآداب تخضع الشعر الذي يردها لعملية غربلة قاسية » !..

ومما لا ريب فيه ان انفمار امة برمتها في طوفان من الزيف لمجرد ان نخبتها قد تخلت عن مسؤولياتها الحقيقية واستكانت الى التدبق في نزعة بيروقراطية مرفهة على حساب شعب مضلل ، لا يعني ان يقف ذلك كله عرضة في سبيل الشعر لكي يتخذ موقفه ويعبر عنه بطريقته التي تقتضيها وسائله وغاياته وبالتالي ملابسات الظروف والوضع .

وللدكتور علي تحياتي وشكري الجزيل على ما اتاحه لي من فرصة لمثل هذا النقاش الذي ارجو ان لا يخلو من اهمية .. ولصاحب هذه المجلة فائق التقدير لما يتيحه لحرية الجدل من مجال هو احرص عليه واشد ايمانا بجدواه في الحدود التي لا يستحيل فيها الى مهاترة لفظية عارية من النزاهة والشرف . والسلام .

القاهرة — **الطيب الشريف**

الى السيدة عايده مطرجي ادريس

بقلم خالد الشريقي

ما اردت في حياتي ان اقحم في جدل او نقاش قد لا يقنع احد طرفيه بوجهة نظر الاخر . لكن السيدة عايدة في نقدها قصص العدد الثامن من الآداب في العدد الماضي دفعتني مضطرا لان اسجل كلمتي هذه كي ارفع ستار الغموض الذي اسدلته على قصتي « الابد الصغير » يقينا مني بأنها قد تحكم على وجهة نظري هذه .

لقد اعتمدت في قصتي ـ كما لاحظ القارىء ـ على الذكريات وتداعي الافكار ، محاولا ربط العنصر الزمني الحاضر بالماضي ، مثبتا بذلك الصور السريعة المهزوزة التي قد تعترض مخيلة البطل في لحظات قلقة مضطربة مهزوزة .

ولم يكن البطل سوى جندي قد انتصب حارسا على الحدود السورية في احد مخافرها الامامية ـ وليس في بعض المخافر كما فهمت الناقدة ـ ترقص على سفح مقابل له اضواء مستعمرات يهودية كان يهلل حين سماعه للبطولات العربية على جوانبها ، يقف عند الراديو يدفن في نفسه كل كلمة تنطق منه .

فالجندي الذي يعيش على الحدود يا سيدتي ، هو غير الجندي الذي يتراءى لك بحلته الزاهية في شوارع المدينة .

وانا اعذرك ، فلم يسبق لك ـ كامرأة ـ ان قضيت ليلة واحدة من ليالي الشتاء في احد المخافر الامامية من الحدود . لو فعلت ذلك ـ كوني على ثقة ـ لتبدل رأيك ، ولتغيرت نظرتك الى تكنيك القصة ، ولاعترفت ـ ولست مجبرة ـ بأن تداعي ذكريات بطل « الابد الصغير » هو التداعي الذي يبحث عنه جندي يقف على الحدود في ليلة شتائية .

وكنت ارتأي عليك يا سيدتي قبل ان تحكمي على قصتي ـ فيما لو كانت احدى قصص غيري ـ ان تجلسي الى احد الجنود فترة من الزمن محاولة بذلك الوقوف على التجربة الزمنية التي يعيشها هذا الجندي في الخط الامامي . وعندها سأقول لك مطمئنا : « ابدئي النقد »

لقد فات السيدة عايدة الكثير من لحظات القصة ـ لكونها قصة عسكرية ـ او انها ارادت تعمد ذلك ـلا ادري ـ ، اذ انها تقول : « اللحظة التي تدورفيهاالقصةهي وقت الحراسة التي أنيطت به انتظارا لرد هجوم سيشن من قبل اليهود » .

واقول انا بأن حوادث القصة لم تجر كلها وقت الحراسة ، كما يخيل ذلك للناقدة ، فقد بدأتها في المحرس الذي يستعرض فيه الجندي الارض التي ينتصب فوقها ، لكنه سرعان ما يرجع الى نفسه عندما يصرخ :

ـ قف ! من انت ؟..

بعدها ، يعود الى خيمته ، ليصل ما انقطع من صوره :

« الارض لا تزال مبتلة من امطار البارحة ، والاحجار المرصوفة ذات الرؤوس المسنونة تنخز ظهري كأنها مسامير دقت الى الارض ،كانت البارحة مرفا للامطار ، ورفاقي متكومون ، متلاصقون ، تقيهم البرد خيمة صغيرة فتح فيها الهواء نوافذ فوضوية كثيرة . » ..

وينتقل من صورة الى اخرى ، وهو لا يزال في خيمته ـ وليس في المحرس كما فهمت السيدة عايدة ـ مركزا دون شعور منه اقرب صورة عرضية ارتسمت امامه ، فيستيقظ من افكاره ، على غفلة منه ، ويرجع الى حقيقته عندما يفاجأ بصوت :

ـ ألم تنم بعد ؟

ـ . . . . .

ـ حانت نوبتك ..

وينهض في طريقه الى المحرس ليعيد من جديد .. المشاهد .. والصور .. والذكريات .. التي مرت امامه في النوبة الاولى :

« مرة في العمر يستحيل الشوق الى رماد .. »

ثقي يا سيدتي ان لا جديد مطلقا في الساعتين اللتين يقفهما الحارس في كل مرة ، فالصور .. والمشاهد .. والحوادث .. والذكريات .. كلها تعاد بشكل آلي في كل مرة .. في كل ليلة .. في كل نوبة ، بسبب تكرار عملية الحراسة .

فالجندي ينتصب ساعتين في مخفره ، ثم يستلم رفيق له الحراسة ليذهب هو الى خيمته كي ينام مستريحا اربع ساعات متواليات .. بعدها تبدأ ساعتنا حراسته مباشرة من جديد .. وهكذا ..

اعتقد ان هذه الحقيقة قد غابت عن تفكير الناقدة الكريمة ، كما غابت عنها ايضا بعض الحقائق العسكرية الاخرى التي انا بصددها .

تقول : « فهو في اول القصة يصف مكان الحراسة ، ويذكر الحوار الذي جرى بينه وبين الرئيس » .

ان الحوار يا سيدتي لم يجر بيني وبين ال رئيس . لقد جرى بين الملازم ورئيس الحرس ، وذلك عندما دخل الملازم على الخيمة التي جمعتنا نحن الحرس مع رئيسنا ـ كما يستنتج ذلك القارىء من سؤال الملازم الذي يدل على انه لم يكن معنا : ـ أكل شيء هادىء ؟

فعند استعراضي لذكرياتي ما ايقظني دخول الملازم علينا ، انما صوته :

ـ أكل شيء هادىء ؟

تاركا هذا الاستنتاج للقارىء (1) .ولم اتدخل في الحوار الا في الاخير مضطرا لذلك عندما سأل الضابط رئيس الحرس :

ـ أبامكانك ايقاظي في الرابعة ؟

وعندما لم يجبه هذا لان الساعة الرابعة صباحا هي الوقت الذي يكون فيه رئيس الحرس مستريحا ليستلم مهمته معاونه، هنا فقط تدخلت انا بالحوار : ـ سأمر عليك انا يا سيدي في طريقي الى المحرس ، فالرابعة موعد نوبتي الثالثة .

ترى ، اباعتقاد السيدة عايدة ان رئيس الحرس ـ وهو برتبة رقيب غالبا ـ يستلم الخفارة المناطة بجندي ؟

هذا وغيره من اللفتات العسكرية التي ذكرتها وسأذكرها سبب غموض قصتي على السيدة عايدة كما اعتقد ..

على اني لا ادري السبب في استنتاجها باننا كنا ننتظر رد هجوم سيشن من قبل اليهود . الحقيقة اني لم اكن اعلم بهذا النبأ المفاجيء ، ولا ارى مبررا لاعتقاد الناقدة بذلك .. ألان دورية يهودية تسللت الى اراضينا في الليلة الماضية ؟

لا انكر اننا نكون حذرين في ذلك الوقت وفي أي وقت اخر ، انما من المعروف ـ عسكريا ـ ان اعتداء في اليوم الثاني لا يحدث من قبل اليهود، لانهم يعلمون حذرنا الشديد بسبب اعتدائهم في الليلة التي قبلها كما اسلفت ، هذا بالاضافة الى ان الجندي السوري لا يفارقه حذره في كل ساعة ، والا لما استطاع « احمد حارس اقرب مخفر من الحدود ان يتكوم الى جانب مسدسه الرشاش ، وعلى يمينه كومة من اغلفة الطلقات المزروعة في الوحل . ». وان استعرضنا مراحل الاعتداءات اليهودية لما وجدنا اعتداءين يهوديين في يومين متتاليين . هل علمت بذلك السيدة عايدة ؟

على ان حوادث القصة ايضا لم تقع في الليلة التي ينتظر البطل فيها هجوما يهوديا كما فهمت الناقدة . انما في اية ليلة كانت .. في أي زمان ومكان ، ترى جنديا ينتصب حارسا ، وليس فقط ان كان ينتظر هجوما .

والجندي يا سيدتي ، الجندي الذي يقف في ليلة شتائية قاسية على الحدود ، عندما يرى غيوما تمر فوقه يقفز بتفكيره دون أي تمهيد الى بلدته السريعة الغيوم ، تأكدي ذلك يا سيدتي ، دون ان يمهد لهذا الانتقال ، لانه يبحث عن أي شيء يعبث به تفكيره في ذلك الوقت ، مضيعا ما يستطيعه من وقت حراسته ، فلا احد الى جانبه ، انه وحيد مع نفسه .

وعندما ينتقل الى غيوم بلدته ، سريعا ما نراه يدخل بيته ، ليجد امه امامه تقف مودعة له ليلة سفره . تماما عكس اتهامك عندما تقولين : « فالكاتب ينتقل فجأة من لحظة الى لحظة دون ان يمهد لهذا الانتقال، او يجد له مبررا ».

فالجندي هو الوحيد الذي ينتقل من لحظة الى لحظة دون تمهيد .

عندما كنا نعيش على الحدود ، كان واحدنا يتذكر حبيبته عندما يضم اليه بارودته ، ويشعر بأمه ترفع اللحاف لتغطي رأسه عندما يسمع صفير الرياح .. وفي تلك اللحظة التي يتذكر فيها امه ، يبتر تفكيره مضطرا ، ليجلس مع حقيقته على الحدود :

ـ ألم تنم بعد ؟!..

وينهض ، ليترك تفكيره بامه معلقا ، انما سرعان ما يرجع اليه عندما يمر امامه شيء يتعلق بأمه

وليرسم خيال الناقدة الفاضلة جنديا يتكيء على احد جنبيه بعد حراسة ساعتين متواصلتين في ليلة باردة ، وهو يرجع بذاكرته الى حب له حلم به سنوات اربع ، وفي غمرة تفكيره ، يفاجأ بصوت يأمره :

ـ حانت نوبتك ...

فبهذه الحالة اتساءل : كيف تريد السيدة عايدة ان لا ينتقل البطل من لحظة الى لحظة دون تمهيد ؟ اذ ينقطع شريط افكاره رغما عنه ليحاول ربطه من جديد : « واتمشى امتارا معدودة لاقف على عتبة ذكرياتي احلم باشياء كثيرة ، وبالفكرة التي داعبتني منذ سنوات اربع .. ».

واما عن انتقالي فجاة من التفكير في جوي الذي كنته الى الاعتداء اليهودي علينا ، فمرد ذلك للحوار الذي جرى بين الضابط ورئيس الحرس ، فسؤال الضابط ـ « أكل شيء هادىء ؟ » .. نقلني رأسا وبدون تمهيد الى الليلة الماضية التي لم يكن فيها كل شيء هادئا .

أتلمسين يا سيدتي هذا الانتقال الذي اضطرني اليه ما حدث لي في تلك اللحظة التي كنت اعيشها ، وهل باستطاعتك ان لا تجدي مبررا لهذا الانتقال ؟!

وانا يا سيدتي لست ممن يتعمدون الاثارة في قصصهم ، او تحريك عاطفة القارىء بصور ارتجالية متكلفة . انا لا افعل شيئا سوى نقل المشاهد الطبيعية التي حدثت لي ، ابدا لا اتعمد ان اجعل القارىء يهتز او ينفعل ، فقد نقلت هذه الصورة كما حدثت لي دون التعليق عليها : « كنت احمل اغراضي القليلة عندما ضمتني اليها تقبلني وهي تبكي » . ولم اضف شيئا ، لقد تركت ذلك للقارىء (٢) .

وتنكرين ان امي قالت لي : « ان لم تدافع عن ارض اخوانك انت واخوانك .. من يقاتل ؟ ابوك .. اخوتك الصغار ؟ »

ثقي يا سيدتي ان امي قالت لي هذه الجملة ليلة سفري عندما كنت احزم حقيبتي ، وهي ورائي تضرب لي مثلا بعض الشبان من اقربائها وجيرانها الذين خدموا بلادهم باخلاص . انا لا اقول ان امي ام مثالية !.. انما استطاعت ان تعلمني حب الوطن ..

في غد يا سيدتي ، عندما يقف ابنك امامك ليضمك اليه مودعا ليلة سفره ستقولين له حتما : « ان لم تدافع عن ارض اخوانك انت واخوانك .. من يقاتل ؟ أبوك .. اخوتك الصغار ؟.. » وعندها فقط ستعرفين الشيء الكثير عن نفسية الجندي ، وسيحدثك فيما بعد دون ان تطلبي منه ذلك عن اللحظات القلقة المضطربة التي كان يفكر بها فيك ، ليتنقل بعدها بتفكيره مباشرة وبدون اتمام رسم صورتك ، وبدون تمهيد ، الى طبيعته العسكرية عندما يسأله احدهم : ـ ألم تنم بعد ؟!

ان الجو العسكري يحتم هذا البتر وهذا الانتقال المفاجيء ، والقصة العسكرية لن تنجح ان لم يستعمل كاتبها هذه الطريقة ، شريطة الاعتماد على التداعي والذكريات . وللسبب فاني اعذر السيدة عايدة عدم دراستها لهذه القصة العسكرية الدراسة الكافية لكونها بعيدة عن الجو العسكري (٣) بحكم طبيعتها كامرأة ، غير دارية بالتكنيك العسكري الحربي ...

واتساءل مع القارىء بعد كل هذا فيما اذا كانت الناقدة الفاضلة لا زالت مصرة على حكمها باني لم اعش هذه القصة . . آملا ان تعيد قراءتها من جديد على ضوء هذه المعلومات العسكرية التي كنت بصددها اخيرا ، لك مني يا سيدتي كل تقدير واعجاب .

اللاذقية — خالد الشريقي

---

(١) ـ (٢) ـ اني اذكر السيدة عايدة انها عابت على السيد جورج طرابيشي تدخله في تفاصيل بعض اجزاء قصته قائلة : (... واعتقد انه يقتل عند القارىء اللذة التي تنبعث من استجلاء الغموض المستحب .) وفي موضع اخر تشير قائلة : (... ولم يكن الكاتب بحاجة لهذا التدخل ولكان من الافضل ان يترك ذلك للقارىء يستخلصه)...

(٣) ـ احب ان اشير الى خطأ عسكري وقعت به ايضا الانسة سميرة عزام في قصتها الاخيرة « في الطريق الى برك سليمان » ، اذ تقول : (وعبأ ماسورة البندقية بالرصاصات) « فالماسورة » لا تعبأ . وانما هناك مذخر خاص مستقل عن « الماسورة » التي يطلق عليها اسم « السبطانه » ، لا يتسع الا لخمس رصاصات . كما وان البندقية نسقت قديما من الاسلحة ولم يعد يستعمل من الاسلحة الفردية سوى (البارودة) . كما وان اسم البندقية يطلق على سلاح الصيد . ولتجنب هذا الخطأ الذي وقعت به الاديبة سميرة من دون علمها ، كان بامكانها ان تقول مثلا : « واطعم بارودته الرصاصات الاخيرة » او (وعبأ بارودته)

مكتبة انطوان

فرع شارع الامير بشير

تلفون ٢٧٦٨٢ ـ ص.ب. ٦٥٦

الجديد في المطبوعات العربية

سليم حيدر	السنة الزمان
الاصول التاريخية	المجلد الثاني ـ الجزء الثالث
ابن سعد	الطبقات الكبرى
فوزي المعلوف	ديوان
ميشال طراد	دولاب
امين الريحاني	قلب العراق
نزار قباني	قالت لي السمراء
نزار قباني	انت لي (طبعة جديدة)
نزار قباني	قصائد

رسائل اخوان الصفاء وخلان الوفاء